جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة: الأولى

المادة: التعبير والإنشاء

عنوان المحاضرة: فنُّ الكتابة

مدرس المادة: م.م انتصار عمر انور

فنُّ الكتابة

لابُدَّ من تقديمٍ للحديث عن اشتقاق كلمة الكتابة، وَلِمَ سميت الكتابة كتابة، فأصل الكتابة مشتق من الكَتْبِ، وهو الجمع، ومنه سمي الكتاب كتاباً؛ لأنه يجمع الحروف، وسميت الكتيبة كتيبة؛ لأنّها تجمع الجيش.

وفنّ الكتابة هو ما سمَّاه القدامى(علم الكتابة)، وهو الوسيلة التي يعرف بها تأدية الرموز الدالَّة على الكلام.

أو بعبارة أخرى: هو قانون تعصم مراعاته من الخطأ في الخط، كما تعصم مراعاة القوانين النحوية من الخطأ في اللفظ.

وهذا الفنّ هو من البحوث اللغوية، ويُعْنَى بدراسة العلاقة بين الرمز المكتوب والصوت المنطوق، ومدى مطابقة كل منهما للآخر، وتحديد مظاهر القصور في الكتابة عن تمثيل المنطوق به تمثيلاً كاملاً.

وهناك مصطلحات كثيرة للتعبير عن هذا الفنّ، منها: الكتاب، والهجاء، والخط، والرسم، والإملاء.

وللكتابة أثرٌ كَبِيرٌ في حياة الانسان, وفي بناء الحضارة الانسانية, ويُعدّ نظام الكتابة العربية نظاماً مثالياً من حيث وضع رمزٍ واحِدٍ مستقل لكل وحدة صوتية، فهناك في اللغة العربية تسعة وعشرون صوتاً صامتاً(حرفاً)، وهناك بإزائها تسعة وعشرون رمزاً، خُصِّصَ كُلُّ رمز منها لصوت معين لا يتعداه، وقد اتبع هذا المبدأ نفسه بالنسبة للمصوتات(الحركات).

والسؤال هنا هو: ما هي العلاقة بين الكتابة والوسيلة التعبيرية للغة؟

وللجواب عن هذا السؤال ينبغي أولًا معرفة التطوُّر التاريخي للكتابة، وكيف تطوَّرَت رموزها لتعبر عن المعنى المراد في ذهن المتكلم؟

فممَّا لا شَكَّ فيه أَنَّ الكلام سابِقٌ للكتابة، وأَنَّ الكتابة لم تُعْرَفُ إلّا بعد تطوّر الحياة وظهور الحضارات.

وهنا ملاحظة جديرة بالإشارة، وهي أَنَّ نَفَرًا من العلماء يرى أن الكتابة توقيفيّة، وأنّها وُجِدَت بوجود الإنسان، إلّا أَنَّ هذا القول لا يستند إلى دليل قطعي.

وهنا يمكن الإشارة على نحو موجز إلى الصورة الأولى للكتابة الإنسانية منذ اختراعها، وما آلت إليه في العصور اللاحقة، فالكتابة بدأت تصويرية، ثم صارت مقطعية، ثم انتهت إلى الكتابة الأبجدية:

١ – الكتابة التصويرية(الرمزية):

وهي أقدم شكل للكتابة الإنسانية عرفه الإنسان ويقوم هذا الشكل الكتابي على أساس تمثيل كل شيء، أو فكرة بعلامة أو صورة مساوية لذلك الشيء، أو تلك الفكرة، وهي كتابة تتميز بأَنَّ قراءتها في متناول أَي إنسان؛ لأَنَّ صورة الشيء تفصح عن مدلوله، فإذا رأينا صورة إنسان يحمل قوساً، وبالقرب منه صورة غزال يعدو أمكننا أن ندرك أن ذلك يدل على رحلة صيد، ومن أشهر الكتابات التصويرية الكتابة الهيروغليفية، والكتابة الصينية، والكتابة السومرية، إلا أن أيا من هذه الكتابات لم يبقى على تلك الحالة لقصور الصورة عن التعبير عن كل حاجات الانسان, فتطورت تلك الكتابة إلى استخدام الأسلوب الرمزي، فكانت العلامة تستخدم للدلالة لا على الشيء المادي الذي تمثله فحسب، بل للدلالة أيضاً على الأسماء والأفعال والصفات ذوات العلاقة بالشيء المادي الذي تمثله العلامة.

٢ – الكتابة المقطعية:

عمل الإنسان على تطويع الكتابة للتعبير عن حاجاته كافة، وذلك بافتراض أنّ بين الشيء وصورته علاقة صوتية، لكن هذه العلاقة بينهما بدأت مقطعية، أي إن المقطع الصوتي المؤلَّف من أكثر من صوت يُعبِّر عنه برمز واحد، وهكذا استطاع الإنسان أن يحوِّل ألفاظ اللغة إلى مقاطع، وأن يستعمل الصورة للتعبير عن المقطع الصوتي.

والكتابة المقطعية تقتضي استخدام مئات الرموز للتعبير عن المقاطع الصوتية التي تتألف منها ألفاظ اللغة، لكنّ ذلك كان يشكل عقبة في طريق استخدام هذا النوع من الكتابات،

ومن ثم فإن خطوة أخرى كانت ضرورية لتصل الكتابة إلى استخدام رمز واحد لكل صوت لغوي واحد، وقد حصل ذلك حقاً باستخدام الكتابة الأبجدية.

٣ – الكتابة الأبجدية:

وتقوم هذه الكتابة على تخصيص رَمْز واحد للصوت الواحد، أَي أنَّ الرموز المستخدمة في الكتابة تكون بعدد مساوٍ للأصوات التي تتألف منها اللغة، وبذلك انخفضت الرموز المستخدمة في الكتابة إلى ما يقارب الثلاثين، تزيد أو تنقص بحسب اللغة، وعلى الرغم من أَنَّ هناك بعض النقائص التي يعاني منها عدد من الكتابات الأبجدية، إلا أَنّ هذا التطور في الكتابة نقلها إلى مرحلة تتميز فيها بأمرين معا: فالأول سهولة الاستخدام، والثاني الدقة في تمثيل أصوات اللغة المكتوبة إلى حد ما.

وما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن الكتابة العربية ترتبط في نظر معظم الباحث المحدثين بتلك الكتابات الأبجدية التي كانت سائدة في بلدان شرقي البحر المتوسط المتصلة بشمال الجزيرة العربية، ويذهبون إلى أنها تطورت عن الكتابة النبطية التي تمثل أحد الخطوط المنحدرة عن الكتابة الآرامية المشتقة من الأبجدية الفينيقية.

أما ما طرأ على الكتابة الأبجدية العربية من تطوّر لاحقٍ فقد تمثل في ضرورات رافقت نزول القرآن الكريم، ولم تخرج معها الكتابة العربية عن أصلها الأبجدي الأول الذي سبق نزول القرآن الكريم، وذلك لسبب مهم هو المحافظة على النص القرآني الذي كتب في عهد الصحابة(رضي الله عنهم)، فهو نص موقوف لم يشأ المسلمون تغييره .

ويمكن إجمال مراحل التطور في الكتابة العربية بعد نزول القرآن في ثلاث صور :

فالأولى: وضع نقاط تدل على الحركات، وهذا العمل قام به أبو الأسود الدؤلي رحمه الله تعالى(ت ٦٩ هـ)، إذ وضع للضمة نقطة فوق الحرف، وللفتحة نقطة بين يدي الحرف، وللكسرة نقطة تحت الحرف، فإن تبع الحركة تنوين وضع نقطتين.

والثانية: وضع نقاط للتفريق بين الحروف المتشابهة، نحو: (الباء والتاء والثاء)، و (الجيم والحاء والخاء)، و(السين والشين)، وغيرها، وهذا العمل ينسب إلى نصر بن عاصم(ت ٩١

هـ)، ويحيى بن يعمر(ت ٩١ هـ) عليهما رحمة الله، وهنا كان من الواجب رسم نقاط الحركات بلون يخالف لون المداد أي إنها تكتب باللون الأحمر، وإبقاء نقاط الحروف بلون الكتابة للتفريق بينهما.

والثالثة: رسم علامات تدل على الحركات، وهذه العلامات دعت إليها صعوبة الكتابة بلونين مختلفين، فكان أن قام الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى(ت ١٧٥ هـ) باختراع علامات الحركات، فالضمة وأو صغيرة توضع فوق الحرف(ـُ) والفتحة ألف صغيرة مائلة توضع فوق الحرف أيضا(ـَ)، والكسرة ياء صغيرة توضع تحت الحرف(ـِ) .

وقام الخليل الفراهيدي أيضا بوضع علامات أخرى، فمنها: علامة تدل على الشدة، وهي رأس شين صغير(ـّ)، وعلامة أخرى تدل على المد، وهي شبيهة بكلمة (مد)، ترسم هكذا (~)، توضع فوق حرف المد واللين، والسكون، وهي رأس خاء صغيرة، ثم حصل تطور في رسم هذه العلامة إلى السكون المعروف في زماننا(ـْ)، وأما التنوين فقد وضع الخليل الفراهيدي له حركتين، بسب نوع الحركة التي يقف عليها القارئ (ـٌـً) .

وهذا التطور في شكل الكتابة العربية هو المعمول به إلى يومنا هذا، وذلك لوفائه بمتطلبات التعبير عن الأصوات العربية، وعدم الحاجة إلى تغييره .

وأما شرفها:

فقد نص الكتاب العزيز عليه، فقال سبحانه وتعالى {اقْرَأْ باسم ربِّكَ الذي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسان من عَلَق(٢) اقْرَأْ وربُّك الأَكْرَمُ (٣) الذي عَلَّمَ بالقلم(٤) عَلَّمَ الإنسان ما لَمْ يَعْلَم}، وهو أوّل ما أنزل على رسول الله ﷺ من القرآن، وهذا يدل دلالة واضحة على مدار الأمر في هذا الدين كلِّه إنما يقوم على الكتابة والتعلم، وقال سبحانه وتعالى { كِرَامًا كاتبين}، والكتابة العربية أشرف الكتابات؛ لأنّ الكتاب العزيز لم يرقم بغيرها خلافاً لسائر الكتب المنزلة.

وأما فوائدها:

فمنها: رسم المصحف الكريم الموجود بين الدفتين في أيدي الناس، ولولا ذلك لاخْتُلِف فيه، ودخل الغلط، وتداخل الوهم قلوب الناس.

ومنها : تدوين الأحاديث المرويّة عن النبي ﷺ التي عليها بُنِيت الأحكام، وتميز الحلال من الحرام، ومنها: ضبط كتب العلوم المنقولة عن أعلام الإسلام وتواريخ من ذهب من الأنام في ما سلف من الأيام .

ومنها : حفظ الحقوق، ومنع تمرد ذوي العقوق بما يقع عليهم من الشهادات ويسيطر عليهم من السجلات التي أمر الله تعالى بضبطها بقوله سبحانه وتعالى: {يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمًّى فاكتبوه} [البقرة ٢٨٢] .

ومنها : المكاتبة بين الناس بحوائجهم من المسافات البعيدة، إذ لا ينضبط مثل ذلك برسول، ولا تنال الحاجة به بمشافهة .

ومنها : ضبط أحوال الناس، وتواقيع العمال وإدارات أرباب الصلات في سائر الأعمال، إلى ما يجري هذا المجرى.

لقد كان وجود الكتابة في الناس فضيلة، وعدمها نقيصة، إلا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فإنّها إحدى معجزاته؛ لأنَّه أُميٌّ أتَىَ بما أعجز البلغاء، وأخرس الفصحاء، وفلَّ حَدَّ المؤرخين من غير مدارسة ولا ممارسة تعليم، ولا مراجعة لمن عرف بذلك واشتهر به. وتشير الروايات إلى أَنَّ أوَّلَ من اخترع الكتابة العربية على الوضع الكوفي هم سكان مدينة الأنبار، ثم نقل هذا القلم إلى مكة فعُرِف بها، وتعلمه من تعلمه، وكثر في الناس وتداولوه ولم تزل الكتابة به على تلك الصورة الكوفية إلى أيام الوزير أبي علي بن مقلة، فعربها تعريباً غير كافٍ، ونقلها نقلاً غير شافٍ، فكانت كذلك إلى أن ظهر علي بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب، فكمل تعريبها وأحسن تبويبها، وأبدع نظامها، وأكمل التئامها، وجَلَّاها للعيون، ولا زال يُنوِّع في محاسنها، حتى تقررت على أجمل قاعدة وتحررت على أكمل فائدة .